

# سمات الطبقة الثوريّة

بقلم عزيز السيد جهم

الطبقات يمتلك الامتداد التاريخي كخطوط بيانية توغل في صلب التاريخ في حين ان قضايا الفكر تأتي بالدرجة الثانية . ومعنى ذلك ان كون الطبقات هسي الاساسيات الاولى يجعل الثقافة والمثقفين يتحركون ضمن المجالات الطبقيّة . ولهذا ينتفي تماما وجود ( مثقف حيادي ) حيث لا ثقافة حيادية ابدا . ولان البرجوازية عمقت الفوارق الطبقيّة بشكل بين وحيث انها خلقت استقطابا اجتماعيا متقابلا فانها كما تطور شروطها المعطاة فرضت على المثقف انحيازاً صارماً وشجبت الحيادية الثقافية كافتراض لا واقعي . اي ان الحدية التي تؤطر الامكانية الثقافية ميزت المثقف الاشتراكي عن المنظر البرجوازي بتعارض صلب حتمته التعارضات الحدية والمتقابلة بين المستغلين - بكسر الفين - والمستغلين - بفتح الفين - . ولذلك نجد عند اي استقراء علمي بسيط ان المجتمعات الاقطاعية او شبه الاقطاعية قد تزخر بمثقفين كخليط مشوش تقريبا - له جذره الطبقي طبعاً - في حين ان المجتمعات البرجوازية تفرض على هذا الوسط المشوش انفراقاً يتأتى من تحدد ووضوح هوية المثقف . وبذلك يعكس الانقسام الطبقي الحاد نفسه على المثقفين باكثر من السابق جلاء .

وفي مجتمعنا العربي الذي يعيش المخاض والذي يقدم عينات اقتصادية واجتماعية من البنية الاقطاعية ، والبنية شبه الاقطاعية وشبه البرجوازية نستطيع ان نلمس ثلاث فصائل من المثقفين : فهناك المثقفون البرجوازيون ، وهؤلاء يدافعون عن مسائل معينة حسب درجاتهم وحسب تخوفهم من المراقبة الشعبية وباسلوب يتراوح بين التصريح والتلميح . فمنهم من يتحدث عن المحافظة او الاعتراف النهائي من القديم ، ومنهم من يتكلم عن الاعتدال ، ومنهم من يتكلم عن ازالة النظام الرأسمالي وخرافة الافقار ، ومنهم من يرفع شعارات السلم الطبقي والمصالحات وخطر الثورات واحلال الصيغ البرلمانية في النضال ... الخ . ويحيط الفكر البرجوازي عند هؤلاء المنظور المثالي الذي يحسنون استعماله عند خلق بلبلية فكرية قد تكون مثمرة بالنسبة لهم . ولا مانع من تسخير الفكر الاشتراكي المحرف من قبل البعض للتصدي اليسار باسم اليسار ونسف الثورة باسم الثورة ، وهذا ما يحدث بخطورة بالغة في المجتمعات التي تعيش مقبيل نهوضها حيث تمارس قطاعات معينة تفرغ الفكر الثوري

ان النظر الى المثقفين كطبقة ذات خصائص مميزة اصبح علامة تشير الى البؤس التحليلي وغياب الوعي العلمي من حيث ان الطبقة ليست صنفاً او تجمعا ثقافياً او دينياً او اجتماعياً . بل ان الطبقة هي مجموعة كبرى من افراد تجمعهم علاقات واضحة ومحددة ومتشابهة بالنسبة لوسائل الانتاج . وبذلك يكون للطبقة اساس مادي مكين يتجوهر ببروز في علاقات تتشكل حول الفعل الاقتصادي . ولذا فنحن عندما نقول بأن ( البروليتاريا ) طبقة لا نعني بذلك المواصفات الشكلية والتجمعية ، وانما نعني وضعها كافراد تجمعهم ظاهرة المنتج الفعال والاجير الذي لا يمتلك فعليا وسائل الانتاج ، مع ما يترتب على ذلك من اضافات وعلائق اجتماعية معينة . اي اننا ندرك ، عبر الفعاليات الاقتصادية ، لماذا يشكل الفلاحون طبقة ، وكذلك البرجوازيون ، في حين ان القضايا الفكرية او السايكولوجية او التعاطفات الاجتماعية لا تصح ان تكون الاساس الموضوعي الذي تتركز حوله الطبقة . وبالنسبة للمثقفين ، وعلى اثر الاستحداثات الميكانيكية والتكنولوجية الفائقة الاهمية والتي ارتبطت بتنامي القدرات الرأسمالية ، فقد تحولوا الى مجاميع بادية للعيان . اي ان غياب الانتاج البضاعي البسيط والحرفي وحلول الصناعة الثقيلة والتطور الآلي ادى الى اشاعة الثقافة وتعظيم اهمية العقل وتوكيد العلم كقوة كبرى تتحصن بواسطتها الامتيازات الرأسمالية . ولذلك اضحى من نافل القول اعتبار الانطلاقة الثقافية مرهونة بانسحاب ظلال النظام الاقطاعي وبزوغ البرجوازية .

وبقدر ما يحتفل المجتمع بتدشينات صناعية ومالية وفنية كبرى يزداد عدد المثقفين ويتحولون الى كم قد يوهم بابعاد طبقية . ولكن هل يكون هذا الكم مرتبطين بشروط محددة كذلك التي تشد الفلاحين الى الارض او العمال الى الآلة ؟ طبعاً لا . اذ ان هذا الكم ، على تميزه بالامكانيات الثقافية ، يظل حاوياً على تباينات وفوارق جدية تحتمها طبيعة كل مثقف والبعد الثقافي له مع نوعية عمله . فهناك العامل المثقف وهناك البرجوازي المثقف ، وهناك المثالي وهناك المادي . هذه التباينات الجذرية تلغي وجود الجسر الذي تنشأ حوله الطبقة ، ففي حين تكون الانسب المادية لنشوء الطبقات اشبه بقدر قانوني متشابه محلياً وعالمياً تكون العلاقات الثقافية تشكيلاً فوقياً متأثراً بالاساس . مع العلم بأن نشوء

من محتواه والمتاجرقة به من أجل امرار البضاعة البرجوازية وزرع اللغم في كتيبة المثقفين الثوريين .

اما الفصيلة الثانية فهي التي تضم المثقفين الثوريين الذين يمتلكون علائم ومميزات خاصة تأتي لها لاحقا . وتظل الفصيلة الثالثة من المثقفين كوسط رجراج يحمل جذورا عديدة ومتفاوتة وهو - اي هذا الوسط - ميل الى التقلص ، وذلك لانه يتجه حتما الى احد القطبين في الفصيلة الاولى او في الثانية . وتقلص هذا الوسط وتشردمه مرهون بالتغيرات العميقة التي يحبل بها المجتمع والتي تجد مرتكزا في تبدلات ادوات الانتاج والقوى المنتجة والعلائق القائمة .

### من هو المثقف الثوري ؟

ان تحديد سمات المثقف الثوري امر بالغ الخطورة لانه الضمانة الوحيدة للحفاظ على الاصاله الثقافية الثورية والكابح الذي يوقف كل عمليات السطو والغزو الايدولوجي السام التي تضخها الهيئات الفكرية للبرجوازية . ونظرا للدور الحيوي الذي يمارسه المثقف فهو مطالب بأن يعي المميزات والخصائص التي يتطور خلالها عبر تربية شاقة تتعهد بها المسؤولية النضالية . ومن الجانب الاخر نستطيع ان نرى المكر البرجوازي الذي جند الكثير من عملائه للاندساس في الجانب الثوري حتى يستطيع ان يضرب ضربته في الوقت المناسب وكما حدث في الكثير من الحركات الاشتراكية في العالم وكما يحدث بكثرة في بداية تفتح الوعي الاشتراكي في اقطار اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

لذا فان التشديد على سمات المثقف الثوري بمثابة جزء من التصلب الذي تقتضيه طبيعة الدفاع الثوري ، هذا التصلب الذي يعتبر التحصن الكفاحي البالغ الاهمية والذي بامكانه فحسب مقابلة البربرية البرجوازية المتفنتة في وسائلها العنيفة بعد ادراكها لحقيقة احتضارها القائمة .

### ما هي هذه السمات اذن ؟

اولا - ان المثقف الثوري هو من استوعب الفكر الاشتراكي العلمي استيعابا حقيقيا كاملا بحيث تاهل لان يحتاز الايدولوجية الثورية كمرشد ودليل نظري للعمل . وهذا الاستيعاب لا يعني فحسب هضم كل مسائل الفكر الثوري العالمي وانما يعني ايضا تطويع قوى المثقف ذهنيا وسايكولوجيا وجسديا وبشكل وظيفي تام الالتزام وقادر على التطور باستمرار ، بما يضم ذلك من اجتثاث للجذور التقليدية وافكار العادة ورواسب الحياة والتربية البدائية عبر العمل الثوري والتجربة الثورية بحيث يكون الاستيعاب جزءا من الغامرة المشروعة .

ثانيا - ان الاقتصار على الفداء الفكري الذي قدمه الرواد الاشتراكيون ليس من صفات المثقف الثوري . فالثوري مطالب بالاستفادة من كل القضايا الفكرية التي قدمها المفكرون . اي انه مطالب بدراسة الفكر المثالي

والفكر المادي القديم والاطلاع على النتاج الثقافي للبرجوازية . ومن خلال الدراسة الناقدة والنظرة الثاقبة التي يتسم بها الثوري المثقف يستطيع ان يزيل الاغلفة ويعطي للفكر رأسه الحقيقي تماما كما فعل (ماركس) مع دياكتيك ( هيغل ) وكما يفعل ( غارودي ) - في باب اخر - في دراساته القديمة ( عن ابن خلدون مثلا ) .

ان المثقف الثوري مسؤول عن كل قضايا الفكر في العالم ، وان الاستنكاف عن مطالعة او دراسة المسائل الفكرية المختلفة انما هو دليل على ان هذا المثقف قد كف عن كونه ثوريا مثقفا وابع لنفسه ان يتكلس في شرنقته الذهبية ليخط وثيقة نهايته .

ثالثا - ان المثقف الثوري يمتلك صلات روحية بالشعب . وبهذه الصلات يكون هذا المثقف تلميذا ومعلما، جنديا ورائدا ، لا يتعد امام الشعب - في المقدمة - كثيرا ولا يتلاشى في وسطه ، بل انه معه باستمرار ، يوجهه دون ان يتعالى عليه ، ويتواضع دون ان يذوب . ان المثقف الثوري يذهب الى المصنع والحقل والجبل والمرعى والمقهى والشارع لانه صاحب رسالة ، وهذه الرسالة لا تصدر ابدا من مكتب او مدياع ، انها معايشة يومية مخلصة مستمرة التجدد . وعن طريق هذه المعايشة يستطيع المثقف ان ينقي نفسه باستمرار ، لان الشعب مهما كان بسيطا فهو الربوبي العظيم . ترى الان نستطيع ان نحكم على اولئك الذين يمضفون علكة اليسارية والثورية بشراهة وهم مسمرون على مقاعدهم العتيقة ؟

رابعا - اخلاقية المثقف الثوري لصيقة بمقتضيات النشاطات الثورية . ولكن هذه الاخلاقية لا تخرج عن المدى الاساسي الذي يملك روح الرائد وهذا المدى هو الحب المتعاطف للانسان . واخلاقية المثقف تتحدد بانشداد النظرية الى العمل . وبدون العمل الثوري لا يوجد فكر ثوري ، لان الفكر حينئذ يتقزم كمصطلحات وعبارات تستظهر بسخف وعبث . وبالنسبة لواقعنا العربي ولطبيعة المهمات الواجبة علينا فان اخلاقية المثقف تستلزم منه ان يكون مشدودا باعمال المقاومة العربية المجيدة في فلسطين المحتلة مع كل ما يقتضيه هذا الانشداد من عمل وبذل ونكران ذات . ولقد كان للطواف المقدس الذي عانقه الملاح الثوري ( غيفارا ) من أجل القضية ، ولدخول المثقف ( دوبريه ) قلب القضية ، حصيلة هائلة فرضت على المثقف العربي الاستعداد الكلي لحمل البندقية مع الكلمة . .

ان اخلاقية الثوري هي ، وبالضبط ، اخلاقية العمل الطوعي من أجل الشعب ، هذا العمل الفدائي غير المنقطع مع ما يحيط به من أروع المثل الاخلاقية وأكثرها شرفا . وبذلك فقط لا يمكن ولن يمكن أبدا للمثقف الثوري أن يسقط أمام الاغراء لان معادلته الوحيدة هي ( هو القضية والقضية هو ) .

## سمات المثقف الثوري

- تنمة المنشور على الصفحة ٧ -

\*\*\*

خامسا - بالنسبة لهذه السمات المذكورة لا تتسلل الواحدة بعد الاخرى ولا يكتسبها المثقف شيئا بعد شيء . انها كلها متداخلة في سمة واحدة . ومن الفباء تماما القول : الدراسة أولا ثم الاخلاص للشعب ثانيا . فالدراسة تمتاز بالاخلاص بشكل حقيقي ، بحيث يفتني الواحد بالآخر وبحيث يكون تطور المثقف متناميا باستمرار عبر كل هذه السمات .

### لن ينتمي المثقف الثوري ؟

ان كل مثقف في العالم هو صاحب قضية . وهذه القضية لا بد ان تحاز وتضاف الى التراكمات الموزعة على الجبهات الطبقية . ولما كان تاريخ العالم هو سلسلة من الصراعات الطبقية فان المثقف مشدود فعلا الى هذه الصراعات بحيث ترتبط تطلعاته بوعي أو بلا وعي بتطلعات طبقة معينة . ان المثقف البرجوازي مثلا يعي تماما انضواءه وايدولوجيته ، وكذلك المثقف الاشتراكي . ولكن هناك مجموعة من المثقفين لا تتحدث اطلاقا عن الانتماءات الطبقية ، فهي تصور نفسها وكأنها منفصلة من كل الرباطات القائمة لتتحدث عن ( الفكر الصافي ) أو عن ( الوجود والماهية ) أو تستغرق في مسائل جد قديمة . الخ . هذه المجموعة من المثقفين قد لا تعي دورها الطبقي أو انها تنكره اصلا ، لكنها ومهما تفعل لا بد أن تكون في تحصيل الحاصل مدموغة بالهوية الطبقية . وذلك لا يكشفه الا النقد العلمي في الايدولوجيا السياسية ، فليس شرطا ان يخون المثقف البرجوازي برجوازيته ويعلن تنصله منها ليضحى اشتراكيا أو غير برجوازي ، وليس شرطا أن يتحدث المثقف بمصطلحات ومقولات اشتراكية حتى يسمى اشتراكيا . وكذلك وعند تسليط الاضائة النقدية الموجهة تبدو لنا خرافة ما يسمى بالمثقف الانساني في عصر الاحتدامات الطبقية ، من حيث ان الانسانية المطلقة غير متوفرة في مثل هذا العصر ، لماذا ؟ لان الفهم الانساني الحقيقي يقود الى التزام القوى البشرية المظلومة وبالتالي يدعو الى اعلان الحرب ضد المجموعات ( البشرية ) المعادية للانسان . ان طبيعة العصر القاسية فرضت وجود انسانيين ( مذنب كبير وبريء كبير ) ولذا تكون ( الانسانية المطلقة ) غير واردة . فهناك ( الانسانية البرجوازية ) التي تركز على مقولاتها الخاصة والتي تلتزم الانسان سطحيا . وهناك ( الانسانية الثورية ) ، انسانية الاشتراكيين التي تلتزم الطبقات الكادحة والمسحوقة . اما النوع الانساني ( الشمولي ) أو ( المثالي ) فهو ينضاف في النهاية الى نوع ما : برجوازي أو اشتراكي . لذا فمن الممكن أن تظل مفاهيم ( الانسانية المطلقة ) أو ( الديمقراطية المطلقة ) مجرد تسميات لا وجود فعليا لها في عالم الفليان والانفجارات الطبقية والثورية ، انها من الممكن أن تجد معناها في مرحلة واحدة هي المرحلة اللاطبقية ، أي عندما تنتهي كل أشكال الاستغلال .

وبالنسبة للمثقف الثوري لا يتزى بالمصطلحات العامة وغير المحدوده ( الانسانية ، الخير ، السعادة ، المساواة .. الخ ) بل ان منطلقاته الفكرية واضحة ودفيعه وغير معرضه للتاويل أو الازدواج . انها المنطلقات التي تحدد مسارها مع حركة التاريخ الصاعدة ، انها انسانيه في حدود تحطيم الاشكال الانسانية المتهرسة والمعادية للتطور والحريه ، وهي تاريخية لانها تعطي للتاريخ فتوة رياضييه بعد ازاحة كل المعوقات التي فرضها العدوايون على بناء المجتمعات الناهضة من الشفيلة والذاحجين .

وحيث ان المثقف الثوري واضح الانتماء ، ويعارضه بالمقابل المثقف البرجوازي ، وكل واحد من الطرفين مسلح بمواده التعافيه الخاصة ، لا بد ان يؤكد ان ثقافه لا تنحصر في المجالات الطبقية فحسب . فهناك فوق العنبر البرجوازي والفكر الاشتراكي فكر عالمي فكر انساني ، هذا الفكر السدي يعزز الابداعات العلمية او سواها . فليس اذن كل ما تمنحه البرجوازية من خلق فكري هو برجوازي مرفوض ، ان هذا خطأ كبير ، اذ ان هناك بين البرجوازيين والاشتراكيين قاسما مشتركا فكريا ينتهل منه الجميع ، وبعد ذلك يتم تمثيله وتحويله من قبل كل طرف ليدعم به مكانته ووضع التاريخي . اي ان انتمائيه المثقف تعرض نفسها بشكل سافر لتحول الفكر العالمي وتفسره لصالحها في النهاية .

ومن خلال كل ما تبين نستطيع أن ندرك عمق المهام المطروحة على المثقف الثوري العربي . انه لا يجابه فقط عدوانا خارجيا تقوم به زمر صهيونية وأمبريالية ، بحيث يعلن ميلاد توريته الجديدة . ان هذه المهام المتشعبة تدعوه الى احاطة كاملة بأبعاد القضية العربية .

ما حركتها الداخلية ؟ وما هو التقسيم الطبقي داخل الامة ؟ وما العلاقة بين حركة الامة العربية الذاتية وبين التطورات العالمية ؟ .. السى آخر ما يفترض طرقة من مسائل حيوية حتى يستطيع أن يكون المثقف العربي بمستوى انتمائه ومتطلبات ذلك الانتماء .

ان التطورات المعاصرة تستلزم من المثقف العربي أن يتعامل بذكاء مع القضايا الثورية والفكرية الكبرى حتى يستطيع أن يسهم في تكوين ملامح مميزة لثقافة عربية ثورية .

عزير السيد جاسم

العراق

### منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجدار